

المطلب الأول: حب النبي ﷺ مكة

لمكة المكرمة منزلة سامية، ولها حب كبير في قلب النبي ﷺ، فهي موطن آبائه الكرام، وأجداده العظام، وفيها مولده الشريف، وبها نزل عليه الوحي المعظم بأول آيات القرآن الكريم، ولكن أهلها لم يستجيبوا لدعوته الكريمة فهاجر منها إلى المدينة المنورة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم لما خرج رسول الله من مكة قال: ﷻ أما والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إليّ، وأكرمه على الله، ولولا إن أهلك أخرجوني ما خرجت ﷻ⁽¹⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ مكة: ﷻ ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك ﷻ⁽²⁾، وقد أورد ابن حبان هذا الحديث تحت عنوان: (ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ)⁽³⁾، وقال الشوكاني (ت: 1250هـ) عنه: (فيه دليل على أن مكة خير أرض الله على الإطلاق وأحبها إلى رسول الله ﷺ)⁽⁴⁾.

قلت: وهذا الفهم للحديث ليس دقيقاً، لأنه غفل أحاديث أخرى في هذا الباب وهي ثابتة في الصحيح، منها ما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ⁽⁵⁾ أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل أمري مُصَبَّح⁽⁶⁾ في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا ألقعه عنه الحمى يرفع عقيرته⁽⁷⁾ يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادٍ⁽⁸⁾ وحوالي إذخر⁽⁹⁾ وجيل⁽¹⁰⁾

(1) أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (ت: 307هـ)، المسند، تحقيق: حسين سليم أسد، ط1، دار المأمون للتراث - دمشق، 1404هـ -

1984م: ج5/ص69 رقم 2662، والهيثمي، علي بن أبي بكر (ت: 807هـ)، مجمع الزوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، 1407هـ: 283/3، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

(2) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت: 296هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ - 1987م: ج5/ص679 - 680 رقم 3926، وقال عنه هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(3) ابن حبان، الصحيح: 23/9 رقم 3709.

(4) الشوكاني، محمد بن علي، نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت، 1973م: ج5/ص98-99.

(5) وُعِكَ، أي: أصابه الوعك، وهي الحمى. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: 852هـ)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ: ج7/ص262 رقم 3711.

(6) مصبح، أي: مصاب بالموت صباحاً. المصدر نفسه: 262/7.

(7) عقيرته: صوته. ابن حجر، فتح الباري: 262/7.

(8) بوادٍ، أي: بوادي مكة. المصدر نفسه: 262/7.

(9) إذخر، نبت بمكة معروف. المصدر نفسه: 262/7.

(10) جليل، نبت أيضاً. المصدر نفسه: 262/7.

وهل أردن يوماً مياه مجنة⁽¹⁾ وهل يبدون لي شامةً وطفيل⁽²⁾
وقال اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض
الوباء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم حب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد. اللهم بارك لنا في صاعنا
وفي مدنا، وصححها لنا وانقل حُمّها إلى الجحفة. قالت: وقدمنّا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بُطحان
يجري نجلاً. تعني ماءً آجناً⁽³⁾، وقد ظهر لي من هذا الحديث أمورٌ عدة:
- أولاً- إنّ هذا الحديث نسخ الأحاديث السابقة كونه متأخراً عنها زمنياً، فالأحاديث السابقة قالها
النبي ﷺ عند الهجرة، وهذا الحديث بعد الاستقرار في المدينة المنورة، والمعلوم أنّ الحديث المتأخر ينسخ
الحديث المتقدم⁽⁴⁾.

ثانياً- في الحديث تصريح بمدى ما يحمله النبي ﷺ وأصحابه من حب لمكة: لقوله ﷺ "كحبنا مكة".
ثالثاً- في هذا الحديث دعا النبي ﷺ ربه، ومعلوم على وجه القطع واليقين أنّ دعاءه مستجاب، وبذلك
أصبح حبّ النبي ﷺ وأصحابه للمدينة ضعفي حبهم لمكة، فَلِمَكَّةَ مكانةٌ في قلبه الشريف، ولكنّ مكانة
المدينة تفوق مكانة مكة بضعفين، وحُبُّ المدينة أشدّ من حب مكة، وحبُّ مكة كبير، ولكن حب المدينة
أكبر وأعظم، وهذا ما دلّ عليه حال النبي ﷺ، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان إذا دخل
مكة قال: اللهم لا تجعل منا يانا بها حتى تخرجنا منها إلى غيرها⁽⁵⁾، فإذا أكمل نسكه عاد مسرعاً
إلى المدينة، فإذا اقترب من حدودها حرك دابته من حُبِّها، وقال: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً
حسناً⁽⁶⁾.

المطلب الثاني: الصلاة في مكة

- (1) مياه مجنة: موضع على بعد أميال من مكة. المصدر نفسه: 262/7.
(2) شامة وطفيل: جبلان بقرب مكة. المصدر نفسه: 262/7.
(3) البخاري، الصحيح: 667/7 رقم 1790.
(4) ينظر: د. عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ط5 مطبعة سليمان الأعظمي، بغداد، 1394هـ-1974م: ص329-333، والماكي، محمد بن علوي، القواعد الأساسية
في أصول الفقه، ط1 جدة، 1419هـ: ص61.
(5) الامام أحمد، المسند: 25/2 رقم 4778، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 253/5، وقال: رواه أحمد والبخاري وأحمد رجال الصحيح خلا محمد بن ربيعة وهو ثقة.
(6) البخاري، التاريخ الكبير: 245/2 رقم 2341، والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (ت: 303هـ) متن عمل اليوم والليلة، ط1، دار الفكر، بيروت، 1406هـ-
1986م: ص173 رقم 557، والنووي، محيي الدين أبو زكريا النووي (ت: 676هـ)، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، مراجعة وتحقيق: محمد غسان عزقول
وآخرون، ط1، دار المنهاج، جدة، 1425هـ-2005م: ص374.

الصلاة في الإسلام عبادة روحية لا تنحصر صحتها في أدائها في المسجد، ولا يشترط في قبولها أن تؤدي في موضع معين، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً﴾ فأما رجلٌ من أمّتي أدركته الصلاة فليُصلِّ... ﴿⁽¹⁾﴾، وفي رواية: ﴿...وأينما أدركتك الصلاة فصلِّ فهو مسجد...﴾ ﴿⁽²⁾﴾، ولكن هناك أماكن للعبادة الكاملة فيها أجرٌ مضاعف، ومنها الحرم المكي الشريف، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿صلاةٌ في مسجدي خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام﴾ ﴿⁽³⁾﴾، وقال: ﴿فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره من المساجد بمائة ألف صلاة...﴾ ﴿⁽⁴⁾﴾، إذن فالصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، ولا بد لنا هنا من بيان عدة أمور:-

1- إنّ المراد بالمسجد الحرام هو الحرم كله ⁽⁵⁾.

2- لا فرق بين الفرائض والنوافل كما يدل عليه تنكير الصلاة ⁽⁶⁾ في الحديث الأول.

3- الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، ولكن: هل الصلاة فيه أعظم من الصلاة في المسجد النبوي؟

والجواب على ذلك:- إنّ مسألة الخلاف في التفضيل بين الصلاة في المسجد الحرام والصلاة في المسجد النبوي قديمة فقد قال ابن عساكر (ت: 686هـ) بعد إيراده للأحاديث الواردة في هذا الباب: (وظاهرٌ هذا يدل على أنّ مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة، واختلاف العلماء في التفضيل بينهما مشهور) ⁽⁷⁾.

(1) البخاري، الصحيح: 128/1 رقم 328.

(2) مسلم، الصحيح: 370/1 رقم 520.

(3) البخاري، المصدر السابق: 398/1 رقم 1133.

(4) المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي (ت: 656هـ)، الترغيب والترهيب: تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية-بيروت، 1417هـ: ج2/141.

(5) ينظر: الصنعاني، محمد بن اسماعيل الكحلاني الأمير (ت: 1182هـ)، سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، المكتبة التجارية الكبرى، مصر: ج2/ص177.

(6) ينظر: الشوكاني، محمد بن علي، السبل الجرار، تحقيق: محمد إبراهيم زايد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ: ج2/ص77.

(7) ابن عساكر، أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب (ت: 686هـ)، إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي ﷺ، تحقيق: حسين محمد علي شكري، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، 1417هـ: ص36.

وقد عَقَّب القاضي عياض على قوله ⇨: ⇨ صلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ⇨، بالقول: (اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة، فذهب مالك في رواية أشهب عنه، وقاله ابن نافع صاحبه، وجماعة أصحابه إلى أن معنى الحديث: أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام فإن الصلاة في مسجد النبي ⇨ أفضل من الصلاة فيه بدون الألف، واحتجوا بما روي عن عمر بن الخطاب ⇨: ⇨ صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه ⇨⁽¹⁾، فتأتي فضيلة مسجد الرسول ⇨ بتسعمائة وعلى غيره بألف، وهذا مبني على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين. وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة، وهو قول عطاء وابن وهب، وابن حبيب من أصحاب مالك، وحكاه الساجي عن الشافعي، وحملوا الاستثناء المتقدم في الحديث على ظاهره، وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل)⁽²⁾. قلت: وقد تبين لي بعد دراسة النصوص الواردة في هذا الباب ما يأتي:-

أ- معنى قوله ⇨: ⇨ صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ⇨، أن الصلاة في المسجد النبوي خير من ألف صلاة فيما سواه، من عامة المساجد إلا المسجد الحرام، وقد حصل الاستثناء كي لا يُسوَّى بين المسجد الحرام وعامة المساجد.

ب- إن قوله ⇨ "خير" أو "أفضل" نكره غير محددة، والنكرة تفيد العموم، فقد تكون الأفضلية-أفضلية الصلاة في المسجد النبوي- بمائتي ألف أو أكثر، ويؤيد ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب قال: ⇨ خرجنا مع رسول الله ⇨ حتى إذا كنا بجرّة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ⇨: ائتوني بوضوء، فتوضأ، ثم قام فاستقبل القبلة، ثم قال: اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك، ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة البركة بركتين ⇨⁽³⁾، وفي رواية: ⇨... واجعل مع البركة بركتين ⇨⁽⁴⁾، وبذلك تكون

(1) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت: 360هـ)، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق عوض الله بن عبد المحسن بن إبراهيم

الحسيني، القاهرة، 1415هـ: ج7/ص27 رقم 6757، وذكره الهيتمي في مجمع الزوائد 4/6 وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف.

(2) القاضي عياض، عياض بن موسى اليحصبي (ت: 544هـ) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، اعتنى به: عبد الحميد أحمد حنفي، مصر: 90/2-91.

(3) الترمذي، الجامع الصحيح 5/674-675، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن خزيمة، الصحيح: 1/105 رقم 209.

البركة في المسجد النبوي والمدينة المنورة ثلاثة أضعاف ما بمكة، فتكون الصلاة فيه بثلاث مائة ألف. والله أعلم.

توجيه لغوي

قال إمام اللغة والأدب ضياء الدين ابن الأثير (637هـ) معقباً على قوله ⇨ ⇨ صلاة في مسجدي خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ⇨: (فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضدان: -أحدهما: إنّ المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله ⇨. -والآخر: إنّ مسجد رسول الله أفضل من المسجد الحرام، أي: إنّ صلاة واحدة فيه لا تفضل ألف صلاة في المسجد الحرام بل تفضل دونها بخلاف المساجد الباقية، فإن ألف صلاة فيها تقصر عن صلاة واحدة فيه)⁽¹⁾.

قلت: ولم آت بكلام ابن الأثير للدلالة على قطعية ما ذهب إليه، ولكن لأبين أنّ اللغة لا تأتي الوجوه التي ذكرت في تفسير الحديث.

الصَّلَاةُ صَلَّةٌ

بعد أن تبين أن الصلاة فرضاً أم كانت نفلاً بمكة تعدل مائة ألف صلاة لا بد أن أشير إلى أمر مهم يغيب عن أذهان الكثيرين وهو أنّ الصلاة هي صلة العبد بربه، وهي عبادة روحية وليست حركاتها الظاهرة سوى إشارات إلى معانٍ روحية عميقة، وأدائها مستكملة للشروط والأركان هو الخطوة الأولى على طريق القبول، وأداؤها بالخشوع والخضوع والدموع هو ما يجعل منها صلاة مقبولة مضاعفة الأجر، فلو أدى شخص ما صلاةً في أحد الحرمين الشريفين -مثلاً- بقلب ساهٍ دون أن يعقل منها شيئاً سوى الحركات الظاهرة، وربما لم يدر كم صلى، فهل يصح أن نقول عن تلك الصلاة أنها بمائة ألف؟! قطعاً إنّ تلك الصلاة غير مقبولة بل تُرمى في وجه صاحبها، فضلاً عن أن يكون أجرها مضاعفاً.

(4) بمعناه عند مسلم، الصحيح: 1001/2 رقم 1374، وابن حبان، الصحيح: 59/9 رقم 3743.

(1) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م: ج1/ص50.

وقد يؤدي المسلم صلاةً ما ليست في المساجد ثم يشعر تماماً أنه بين يدي الله وأن قلبه مشاهدٌ لرحمات الله مستشعرٌ لهطولها، مستقبلٌ لأنوارها، ويؤدي الركوع بالخضوع، والسجود بالتذلل الممزوج بالحب والشوق إلى القرب، وإذا تشهّد ناجى حاضراً لا يغيب، ولم يخطر بباله شيء قط، فإنّ تلك الصلاة وإن لم تكن في مسجد فهي الصلاة المقبولة المضاعفة، ولستُ بذلك أرمي إلى التقليل من شأن الصلاة في البقاع المقدسة فذلك لا يدعيه مسلم ولكنني أرى أنّ المقصود بالصلاة المضاعفة في الحديث هي الصلاة المستكملة لشروطها، وأهمها الخشوع، وأما الصلاة التي لا تؤدي على الوجه الذي أشرتُ إليه فإني أرى أنّ إثمها مضاعفٌ كما يضاعف الأجر في تلك البقاع المقدسة.

ولذلك فقد ورد في السنة المطهرة الحث على الخشوع في الصلاة، كما ورد أنّ ما يقبل من الصلاة هو الجزء الذي يؤدي بخشوع، فعن عمار بن ياسر ◀ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ➡ إنّ الرجل ليُصلي ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا

عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها ➡⁽¹⁾، وعن أبي اليسر ◀ قال قال رسول الله ﷺ: ➡ إنّ منكم من يصلي الصلاة كاملة، ومنكم من يصلي النصف، والثلث، والرابع، والخمس، حتى بلغ العشر ➡⁽²⁾.

فالصلاة بصورة عامة تنقسم على قسمين:

— صلاة العوام: وهي الصلاة التي يُقبل منها ما دون الكمال كالنصف والثلث.

— صلاة الخواص: هي ما تقبل كلها، وأهلها متفاوتون أيضاً.

فالصلاة المضاعفة تكون مضاعفتها على قدر الخشوع

والله أعلم.

معنى مائة ألف

(1) الإمام أحمد، المسند: 4/319.

(2) المروزي، محمد بن نصر الحاج (ت: 2940هـ)، تعظيم قدر الصلاة تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، ط1، مكتبة الدار، المدينة المنورة، 1406هـ: ج1/ص198، والنسائي، أحمد بن شعيب (ت: 303هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ-1991م: ج1/ص211 رقم 611. وقال المنذري: رواه النسائي بإسناد حسن. الترغيب والترهيب: 1/202 رقم 765.

وقد يتردد هنا سؤال وهو: هل المراد بالمائة ألف هذا العدد بالتحديد؟
الذي أراه أنه ليس المقصود العدد المحدد، وإنما المقصود المضاعفة الكبيرة بأضعاف كثيرة، فالعرب كانت ترى أن الألف رقمٌ عظيمٌ، وما هو أكبرُ منه أعظم منه، ولذلك جاء الخطاب على ما يفهمون، وهو إشارة إلى عظمة كرم الله، وهو عطاءٌ دون حساب، ولتقريب الصورة إلى الأذهان أُشير هنا إلى ورود رواية عن النبي ﷺ تصف كرم عبدٍ من عباد الله، ليس هو بنبيٍّ مرسل، وإنما هو رجل صالح كامل الأخلاق، ذلكم هو المهدي-مهدي آخر الزمان- فقد وصفه النبي ﷺ بقوله: ﴿من خلفائكم خليفةٌ يحثوا المال حثياً، ولا يعدّه عداً﴾ (1).

قلت: فإذا كان هذا كرم عبدٍ من عباد الله، فكيف بكرم الأكرمين؟!، وإذا كان هذا كرم عبدٍ غني القلب واليد، سواءً سئل أم لم يُسأل، فكيف بكرم الله الغني المطلق؟! لا شك أن كرمه لا يُحصى ولا يُحصَر.

المطلب الثالث: الصوم في مكة

وكما وردت نصوص صريحة في مضاعفة الصلاة بمكة كذلك وردت نصوص تذكر مضاعفة الصيام، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أدرك رمضان بمكة فصام، وقام منه ما تيسر له، كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواها، وكتب الله له بكل يوم عتق رقبة، وكل ليلة عتق رقبة، وكل يوم حُمْلان فرس في سبيل الله، وفي كل يوم حسنة، وفي كل ليلة حسنة﴾ (2)، وفي رواية عن سيدنا ابن عباس أيضاً قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أدرك شهرَ رمضان بمكة من أوله إلى آخره صيامه وقيامه كتب له مائة ألف شهر رمضان في غيرها، وكان له بكل يوم مغفرة وشفاعة، وبكل يوم حُمْلان فرس في سبيل الله وله بكل يوم دعوة مستجابة﴾ (3).

قلت: وفي الحديثين أمور جديرة بالإشارة إليها:-

(1) مسلم، الصحيح: 4/2235 رقم 2914.

(2) ابن ماجه، ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: 275هـ)، السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1373هـ/1953م: ج2/ص1041 رقم 1317، والمقدسي، محمد بن عبد الواحد بن أحمد (ت: 646هـ)، فضائل الأعمال، مكتبة الشرق الجديد- بغداد، 1989م: ص79-80.

(3) البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الايمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط1- دار الكتب العلمية، بيروت: ج3/ص347 رقم 3729، 487/3، 4149، وقال: تفرد به عبد الرحيم بن يزيد وليس بالقوي.

-أولاً: إنّ هذين الحديثين يؤكدان على أنّ الصلاة المقبولة تضاعف بمائة ألف في حرم مكة كله لا في المسجد وحده، لأنّ المضاعفة لما كانت للصيام فهي للصلاة من باب أولى، ومعلوم أنّ الصيام لا يمكن أن يكون في الحرم وحده، وإنما في مكة كلها.

-ثانياً: إنّ صيام شهر رمضان بمكة يعدل مائة ألف شهر وقوله "فيما سواه" يعني: عموم بقاع الأرض، وأما الصيام في المدينة المنورة فحكمه حكم الصلاة، فهو بثلاث مائة ألف شهر، لأنّ النبي ﷺ حين دعا بمضاعفة البركة فقال: ﴿ادعوك لأهل المدينة مثلي ما باركت لأهل مكة واجعل مع البركة بركتين﴾⁽¹⁾، أصبح كل خير في مكة مضاعفاً في المدينة ثلاثة أضعاف؛ لأنه قال «من البركة» ولم يحدد شيئاً بعينه ولذلك أراها شملت كل شيء.

-ثالثاً: ما قلته في شأن الصلاة ينطبق على الصيام إذ المراد هو الصيام الصحيح المستكمل لشروط القبول، إذ ليس كل من صام قبل صيامه وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ربّ صائمٍ حظّه من صيامه الجوع والعطش...﴾⁽²⁾، فهذا الحديث يخص من صام صياماً غير مقبول، فالحديث يثبت أنّه قد كابد الجوع والعطش ولكنه يشير إلى أنّهما ليسا المقصودين من الصيام، ولا أنّ الأجر ينحصر في مكابدهما، ولكن المراد هو حفظ الجوارح عن المعاصي وحفظ القلب عن المآثم الباطنة، فصاحب هذا الصيام هو من يضاعف صيامه وإن صام خارج الحرم، وقد ورد عن العلماء الصالحين أنّ الصيام ثلاث درجات: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص. أمّا صوم العوام: فكف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وأمّا صوم الخواص فهو صوم الصالحين وهو كف الجوارح عن الآثام فلا يتم ذلك إلا بمداومة خمسة أشياء:-

-الأول:- غض البصر عن كل ما يذمّ شرعاً.

-الثاني:- حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة واليمين الغموس.

-الثالث:- كف الأذن عن استماع كل مكروه.

(1) سبق تخريجه.

(2) الامام أحمد، المسند: 2/373 رقم 8843، والقضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر (ت: 454هـ)، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط2، 1407هـ-1986: ج2/ص309 رقم 1425، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 3/202، وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

-الرابع:- كف جميع الأعضاء عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار.

-الخامس:- أن لا يستكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يملأ بطنه.

وأما صوم خواص الخواص: فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله بالكلية⁽¹⁾.

قلت: فأكثرها مضاعفة للأجر في مكة وغيرها، هو صوم خواص الخواص، ثم صوم الخواص، ثم صوم العوام، فمن أراد أن يعرف مدى مضاعفة صومه في مكة وغيرها فليعرض صومه على هذه المراتب الثلاث.

وقد يزعم معترض أن صوم القلب قد يتعارض مع الشرع؛ لأن التأكيد على صوم القلب قد يجعل الإنسان يشتغل بقلبه ويهمل الأحكام الشرعية للصوم، أو يتعلل من لا يطبق الأحكام الشرعية له بأنه صائم في قلبه، قلت: وذلك جهلٌ محضٌ؛ لأن المتحققين من العلماء وأهل الصلاح قالوا عن تلك الأنواع "مراتب" أو "درجات"، ومعلوم أن الإنسان لا يرتقي إلى المرتبة الثانية حتى يتحقق بالأولى، ولا يمكنه أن يرتقي إلى الدرجة الثانية حتى يتم الأولى ويصبح متمكناً منها فلا يمكن للمسلم أن يتحقق في صوم الخواص حتى يأتي بصوم العوام.

المطلب الرابع:- فضيلة الحج

أبرز خصيصة لمكة المكرمة كمكانٍ أنها المحل الوحيد الذي يجب على المسلمين قصده لأداء فريضة* من فرائض الإسلام، عن أبي هريرة◀ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: ﴿يأيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟، فقال: لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم﴾⁽²⁾.

(1) الغزالي، محمد بن محمد بن محمد (ت: 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت: ج1/ص224، والخوبوي، عثمان بن حسن بن أحمد، درة الناصحين، مكتبة الشرق الجديد، بغداد: ص10.

* تجدر الإشارة إلى أن الحج فرض بنص القرآن وذلك بقوله تعالى ﴿والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ سورة آل عمران، من الآية: 97. ثم أكدته السنة المطهرة بأحاديث كثيرة.

(2) مسلم، الصحيح: 2/975 رقم 1337، والخطيب، محمد خليل، خطب الرسول ﷺ، دار الفضيلة، مصر، 1983: ص60.

قلت: ويظهر لي من سياق الحديث أنّ النبي ﷺ يجب لأُمته أن يحجوا كل عام طلباً لتلك العبادة الجسدية والروحية التي تتطهر فيها الأرواح وتنشط الأشباح، ومن تأمل قوله ﷺ "لو قلت نعم" رأى ذلك جلياً، وكأن النبي ﷺ يقول: أردت أن أقول نعم، ولكنني لم أقل رحمة بكم لئلا تتكاسلوا فتأثموا، ويؤكد هذا المعنى: أن النبي ﷺ عدل عن الإجابة المباشرة إلى الإجابة غير المباشرة، وذلك أنه لم يقل: لا، عندما سُئِلَ، ولكنه قال: "لو قلت ...".

وقصد مكة المكرمة لأداء هذه الفريضة هو ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﷺ ثم بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان والحج، فقال رجلٌ: الحج وصيام رمضان؟، قال: صيام رمضان والحج. هكذا سمعته من رسول الله ﷺ ﷻ (1).

قلت: وهذا الخمسة هي أركان، والأركان تكون للبناء، فهي أركان البناء الروحي للإسلام، فلا يتكامل نور الإسلام عند المسلم المستطيع الحج حتى يؤدي هذه الفريضة المباركة فمن أداها تكامل نور الإسلام عنده فتأهل لدخول الجنة، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﷻ العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ﷻ (2)، قال النووي (ت: 676 هـ): (الأشهر أنّ المبرور هو الذي لا يخالطه إثمٌ، ومعنى ليس له جزاء إلا الجنة: أنه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، بل لا بد أن يدخله الجنة) (3).

وقد بين النبي ﷺ شروط قبول الحج في أحاديث كثيرة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ﷻ من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ﷻ (4)، قال ابن حجر: (الرفث: الجماع، ويطلق على التعريض به، وعلى الفحش في القول... ولم يفسق، أي: لم يأتِ بسيئة ولا

(1) مسلم: المصدر نفسه: 1/45 رقم: 15.

(2) البخاري، الصحيح: 2/629 رقم: 1683، ومسلم، المصدر نفسه: 2/983 رقم: 1349، وابن خزيمة، محمد بن اسحاق السلمي، النيسابوري (ت: 311 هـ)، الصحيح، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1390 هـ - 1970 م: ج 4/ص 131 رقم: 2513.

(3) النووي، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، مراجعة: خليل الميس، دار القلم، بيروت، 1407 هـ - 1987 م: ج 9/ص 119.

(4) البخاري، المصدر السابق: 2/553 رقم: 1449، ومسلم، المصدر السابق: 2/983 رقم: 1350.

معصية⁽¹⁾، وقال أبو جعفر الباقر: (ما يُعبأ بمن يؤمّ هذا البيت إذا لم يأت بثلاثة ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به غضبه، وحسن الصحبة لمن يصحبه من المسلمين)⁽²⁾.

قلت: وهذه الثلاث هي صلب ما يحتاجه الحاج في سفره لإتمام رحلته المباركة.

كما بين النبي ﷺ أجر كل حركة يؤديها الحاج، فقال: **⇒ فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام، لا تضع ناقتك خفّاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة. وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل ▶. وأما طوافك بالصفاء والمرورة بعد ذلك كعتق سبعين رقبة. وأما وقوفك عشية عرفة، فإن الله يهبط إلى السماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاءوني شعثاً من كل فج عميق يرجون جنتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل، أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له. وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات. وأما نحرّك فمدخور لك عند ربك. وأما حلاقتك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة وتمحى عنك بها خطيئة. وأما طوافك بالبيت تطوف بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى **⇒** ⁽³⁾، وخلاصة هذا الحديث أنّ الحاج يبقى خائضاً في رحمة الله منذ أن يقصد البيت الحرام حتى يرجع إلى بيته. فإن لم يرجع إلى بيته ومات في طريقه فإن له أجراً عظيماً، فبينما الناس يوم القيامة وجلين خائفين إذا به يبعث على أفضل حال، عن ابن عباس رضي الله عنهما: **⇒ وقصت رجلاً راحلته وهو مع رسول الله ﷺ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يغسلوه بماء وسدر، وأن يكشفوا وجهه - حسبته قال: ورأسه - فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً **⇒** ⁽⁴⁾، وما ذاك إلا لأنه مات وهو يؤدي عملاً من أعظم الأعمال عند الله، عن أبي هريرة **◀ قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: **⇒** إيمان بالله ورسوله **⇒**، قيل: ثم ماذا، قال: جهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا، قال: حجٌّ مبرور **⇒** ⁽⁵⁾.******

(1) فتح الباري: 3/382.

(2) ابن رجب الحنبلي، زين الدين بن رجب عبد الرحمن بن أحمد (ت: 795هـ)، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، دار الجيل، بيروت، 1975م: ص 246.

(3) المنذري، الترغيب والترهيب: 2/110، رقم 1709، وقال: رواه كلهم موثقون.

(4) البخاري، الصحيح: 2/653، رقم 1742، ومسلم، الصحيح: 2/867، رقم 1206، والرواية له.

(5) البخاري، المصدر نفسه: 1/18، رقم 26، ومسلم، المصدر نفسه: 1/88، رقم 83.

المطلب الخامس: العمرة عمومًا وخصوص

وكما شرّع قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، كذلك شرّع قصدها لأداء العمرة، وليس لها وقت محدد من السنة، إلا أنّ أدائها في بعض الأوقات أعظم أجرًا من أدائها في بقية أيام السنة، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: -العمرة بصورة عامة: وهي العمرة التي تؤدي على مدار أيام السنة، وأجرها عظيم، عن أبي

هريرة: «أنّ رسول الله ﷺ قال: ﴿العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما...﴾» (1)، قال

السيوطي (ت: 911هـ): (هذا ظاهر في فضيلة العمرة وإنها مكفرة للخطايا التي بين العمرتين، والمراد بالخطايا: الصغائر؛ لأنّ الكبائر كما قال القاضي إنما يكفر بالتوبة، أو رحمة الله وفضله) (2).

قلت: وليس في الحديث ما يحدد المغفرة بالصغائر، وما يليق بكرم الرحمن هو أن نقول: إن المغفرة عامة؛ لأن من حل بساحة الرحمن كان قراه الكرم اللائق بذاته سبحانه، ثم إذا تجلّى الله بالمغفرة فإنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

وقد ورد من فضيلة العمرة أنّ أجرها مشابه لأجر الحج، ففي حديث طويل أنّ النبي ﷺ قال لعثمان

بن أبي العاص: «... واعلم أنّ العمرة هي الحج الأصغر، وأنّ عمرة خير من الدنيا وما فيها، وحجة خير من عمرة» (3)، ولذلك حتّ النبي ﷺ أمته، على أن لا تفصل بين حجهم وعمرتهم مدة زمنية

طويلة، عن عبد الله بن مسعود: «قال رسول الله ﷺ: ﴿تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان

الفقر والذنوب كما ينفي الكبر خبث الحديد والذهب والفضة...﴾» (4)، وقال

السندي (ت: 1138هـ): «(تابعوا): أي اجعلوا أحدهما تابعا للآخر واقعاً على عقبه، أي: إذا حججتم

(1) البخاري، المصدر نفسه: 629/2، رقم 1683، ومسلم المصدر نفسه: 984/2، رقم 1349.

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، شرح سنن ابن ماجه، قديمي كتب خانة كراتشي: ج 1/ص 207.

(3) الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن الحسين، نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1992م: ج 3/ص 239، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 74/3، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه هشام بن سليمان وقد ضعفه جماعة من الأئمة ووثقه البخاري.

(4) الترمذي، الجامع الصحيح 175/3 رقم 810، وقال حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود، والنسائي، أحمد بن شعيب (ت: 303هـ)، السنن المجتبى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط 2، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، 1406هـ - 1986م: ج 5/ص 115 رقم 2630، 2631.

فاعتمروا، وإذا اعتمرتم فحجوا⁽¹⁾، وقال المباركفوري (ت: 353هـ): (ينفيان الفقر؛ أي: يزيلانه، وهو يحتمل الفقر الظاهر بحصول غنى اليد، والفقر الباطن بحصول غنى القلب و"الذنوب": أي يحوئها، قيل: المراد بها الصغائر، ولكن يأباه قوله: "كما ينفي الكير": وهو ما ينفخ فيه الحداد لإشعال النار للتصفية، "خبث الحديد والذهب والفضة": أي: وسخها)⁽²⁾.

والذي أميل إليه في معنى الحديث ما يأتي:-

- 1- أن المراد بقوله: ينفيان الفقر: الفقر المادي، والفقر الروحي، فأما نفي الفقر المادي فبفتح أبواب الرزق، وأما نفي الفقر الروحي فإن الإنسان إذا أكثر من زيارة المشاعر المقدسة فإنه يزداد في كل زيارة طاقة روحية جديدة حتى يكون قلبه غنياً، وروحه زكية علوية.
 - 2- إن الحديث تضمن تشبيه المؤمن بالحديد، أو الذهب أو الفضة، وشبه أدائه لهاتين العبادتين بالكير، والكير كما هو معلوم يجعل تلك المعادن نقية من كل خبث فلا يبقى فيها أي شائبة، وكذلك هاتان العبادتان لا تبقيان ذنباً صغيراً كان، أم كبيراً.
 - 3- إن النبي ﷺ حثَّ أمته على المتابعة بينهما كي يبقى المؤمن شعلة نورانية متوقدة، وطاقة روحية متوهجة، وذهباً خالصاً نقياً صافياً.
- ولعظم فضيلة العمرة فقد اختلف العلماء في كونها فرضاً أم سنة، على قولين:-
- الأول: أنها واجبة: وهو رأي الشافعي والجمهور⁽³⁾.
 - الثاني: أنها سنة: وهو رأي مالك وأبي حنيفة وأبي ثور⁽⁴⁾.

قلت: ويظهر لي أن الرأي الراجح هو الثاني لورود نص صريح صحيح عن النبي ﷺ بذلك، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال أتى النبي ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله: أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ قال: لا، وإن

(1) السندي، نور الدين بن عبد الهادي، حاشية السندي على سنن النسائي، تحقيق: د. عبد الفتاح أبو غدة، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1406هـ-1986م ج5/ص115.

(2) المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، تحفة الأحوزي، دار الكتب العلمية، بيروت: ج3/ص454.

(3) ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم: 118/9.

(4) ينظر: المصدر نفسه: 118/9.

تعتمر خيرٌ لك ﴿١﴾، ولعل قول الإمام مالك (ت: 179هـ) من أدق أقوال العلماء في ذلك حين قال: (العمرة سنة ولا نعلم أحداً من المسلمين أرخص في تركها) ﴿٢﴾.

-ثانياً: عمرة رمضان: سبق أن بينا أن العمل الصالح في مكة المكرمة يضاعف أجره، وما ذاك إلا لاجتماع العمل الصالح مع المكان الصالح، فإذا أضفنا إلى العمل الصالح والمكان الصالح الزمن الصالح فإن ذلك العمل بلا شك سيكون أجره مضاعفاً، وهكذا هي العمرة في رمضان، عن أم معقل قالت قال رسول الله ﷺ: ﴿عمرة في رمضان تعدل حجة﴾ ﴿٣﴾، والرواية التي في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأُم سنان الأنصارية: ما منعك من الحج؟ قالت: أبو فلان - تعني: زوجها - كان له ناضحان* حجّ على أحدهما، والآخر يسقي أرضاً لنا، قال: فإن عمرةً في رمضان تقضي حجةً معي﴾ ﴿٤﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث طويل وفيه أن امرأةً بعثت مع زوجها إلى رسول الله ﷺ بسؤال فقال النبي ﷺ: ﴿وإنها أمرتني أن أسألك ما يعدل حجةً معك؟﴾، قال: أقرأها مني سلام الله وأخبرها أنها تعدل حجةً معي عمرةً في رمضان ﴿٥﴾، وعن أبي طليق ﴿أن امرأةً طليق رضي الله عنها قالت: ﴿يأنيبني الله: ما يعدل الحج معك؟﴾، قال: عمرةً في رمضان﴾ ﴿٦﴾، وهنا تتبادر إلى الأذهان عدة أسئلة:

أولها: أيكون معنى الحديث أن العمرة في رمضان تسقط الحج كما هو ظاهر ألفاظ الحديث أم له معنى آخر؟، قال ابن حجر: (أي إن العمرة في رمضان تعدل الحجة في الثواب لا أنها تقوم مقامها في

(1) الإمام أحمد، المسند: 3/16 رقم 14437، والترمذي، السنن: 3/270 رقم 931، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت: 360هـ)، المعجم الصغير، تحقيق: محمد شكور الحاج امير، ط5، المكتب الإسلامي، بيروت، 1405هـ - 1985م: ج2/ص193 رقم 1015.

(2) الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر: ج1/ص347 رقم 7070.

(3) مسلم، الصحيح: 2/917 رقم 1256، وابن خزيمة، الصحيح: 4/360 رقم 3075.

* الناضح: البعير، أو الثور، أو الحمار الذي يستقى عليه الماء. ابن منظور، لسان العرب مادة (نضح): 619/2.

(4) البخاري، الصحيح: 2/659 رقم 1764، ومسلم، المصدر السابق: 2/917 رقم 1256.

(5) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت: 275هـ)، السنن، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة

العصرية، صيدا، بيروت: ج2/ص205، رقم 1990، وابن خزيمة، الصحيح: 4/361 رقم 3077 واللفظ له، والطبراني، المعجم الكبير: 1/207 رقم 12911، والبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت: 458هـ)، شعب الإيمان، 1414هـ - 1994م: ج6/ص164 رقم 11699.

(6) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2 - مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404هـ - 1983م: ج25/ص173 رقم 425.

إسقاط الفرض للإجماع على أن الاعتماد لا يجزي عن حج الفرض⁽¹⁾، وهذا ما أميل إليه لأن الحج فرض والعمره سنة كما مر، ولا يمكن للسنة أن تقوم مقام الفرض.

وثانيها: ما هي الحكمة من مضاعفة أجر تلك العمره؟ قال الشعراني (ت: 973هـ): (وذلك لما عند الإنسان من الصفاء والنور في رمضان لما هو عليه من الجوع وكثرة العبادة والأجر يعظم بحسب شدة القرب من حضرة الله تعالى)⁽²⁾.

حَجَّةٌ مَعِي

ورد في الروايات الصحيحة أن تلك العمره تعدل حجة مع النبي ﷺ فما معنى ذلك؟

أرى أن ذلك يعني أمرين متلازمين:-

-أحدهما إنّ العمره في رمضان تكون بإمضاء النبي ﷺ ولا شك أن ما كان بإمضائه فهو عمل مقبول بل هو أعظم الحسنات، وقد عرف الصحابة ﷺ هذا المعنى لذلك حرصوا على الحج والاعتماد معه ﷺ ومنهم من ندم على فواته ذلك، وأبرزهم تلك الصحابة الجليلة الواردة في الحديث، ولذلك أوصت زوجها أن يسأله ﷺ.

-والآخر: إنّ في قوله "معي" تصريح بأنّ روحانية حضرة الرسول الأعظم ﷺ تكون طائفة في تلك البقاع المقدسة طوال شهر رمضان، فمن قصد تلك البقاع اقترب من روحانيته الشريفة ونال حظاً من أنوارها-على قدر حاله-، ولا شك إنّ من اقترب منها تنورت روحه وترقت، وتركى قلبه وتطهر، وأعظم دليل على أنّ روحانيته الشريفة تأتي تلك البقاع ما ورد أنّ النبي ﷺ رأى الأنبياء قاصدين تلك البقاع، عن ابن عباس ﷺ: ﷺ ثم إنّ رسول الله ﷺ مرّ بوادي الأزرق فقال: أي وادٍ هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: كأي أنظر إلى موسى ﷺ هابطاً من الثنية وله جُؤارٌ* إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثنية هرشى

(1) فتح الباري: 3/604.

(2) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي، لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية: ط1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده-مصر 1381هـ-1961م: ص217.

* الجؤار: رفع الصوت. النووي، شرح صحيح مسلم: 2/229.

فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هرشي، قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى ► على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف، خطام ناقته خَلْبَةٌ** وهو يُليبي ⇨ (1).

قلتُ: وبما أنه ثبت أن هؤلاء الأنبياء قد قصدوا البيت الحرام - مع أنهم في تلك الدار - فهو ثابت لدينا محمد ⇨ من باب أولى إذ هو سيد الأنبياء والمرسلين، فما من فضيلة لني إلا ولنبينا أضعاف أضعافها، ولذا أعطى هذه الخصوصية لعمره في رمضان فقال: "معي"، فالمعِيَّةُ معه △ غير الأجر، وأجر الحجة معه، أي: في شهود المعاني الإيمانية.

والله أعلم.

المطلب السادس: البَيْتُ الحَرَامُ مَوْطُنُ الرَّحْمَاتِ ومغفرة الزَّلَّاتِ وإجابة الدعوات ومضاعفة الحسنات من أظهر الآيات البَيِّنَاتِ في البيت الحرام أربعة أمور متلازمة، أحدها: أنه موطن لتنزل رحمت الله، والثاني: أنه مكان المغفرة، والثالث: أنه محل لإجابة الدعوات، والرابع: أنه محل مضاعفة الحسنات. قلت: وهي متلازمة؛ لأن هطول الرحمة يترتب عليه المغفرة، وحصول المغفرة يترتب عليه إجابة الدعوات، ثم يتسع الكرم الرباني لمضاعفة الحسنات، وسنأتي على بيان ذلك فنقول: -

- أولاً: موطن الرحمت: ورد عن النبي ⇨ أن الرحمت تنزل يومياً على البيت، فتصيب كل من حضر، سواء كان مصلياً أم طائفاً، بل تشمل الناظرين، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله ⇨: ⇨ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَشْرِينَ وَمِائَةَ رَحْمَةٍ، يَنْزِلُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ سِتُونَ

** خَلْبَةٌ: ليفاً: المصدر نفسه: 229/2.

(1) مسلم، الصحيح: 1/152 رقم 66، ابن خزيمة، الصحيح: 4/175 رقم 2632، وابن حبان، الصحيح: 9/110 رقم 3801.

للطائفين، وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين⁽¹⁾، وللعلماء في كيفية قسمة الرحمة على كل فريق، رأيان: -

-الأول: -تكون القسمة على المسمى بالسوية لا على العمل قلّة وكثرة، وما زاد على المسمى فله ثواب، أي: إنّ كل طائف سواءً طاف كثيراً أم طوافاً واحداً - له ستون رحمة وكذا بقية الأصناف.

-الثاني: -تكون قسمتها على قدر العمل؛ لأن الحديث ورد في الحث والتحريض على العمل الصالح في تلك البقاع، فلا يستوي فيه عامل الأقل والأكثر، ولأنّ الرحمات متنوعة بعضها أعلى من بعض، فرحمة يعبر بها عن المغفرة، وأخرى عن العصمة، وأخرى عن الرضا، وأخرى عن تبوء مقعد صدق، وأخرى عن النجاة من النار.

قلت: وهذه الرحمة تصيب أهل القلوب الرحيمة الحاضرين في البيت، وليس للقاسية قلوبهم منها نصيب، لقوله: ﴿... إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عبادِهِ الرَّحَمَاءُ﴾⁽²⁾، وقوله: ﴿مَنْ لَا يَرْحَمِ، لَا يُرْحَمُ﴾⁽³⁾، وقد بين لنا السبيل التي تجعل من المسلم موطناً لرحمات الله، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﴿الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، إِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾⁽⁴⁾.

وأما كيفية تقسيمها فإني أرى أن ذلك يعتمد على مقدار الطاقة الروحية التي يحملها المؤمن، وقدر سعة قلبه لاستقبال تلك الرحمات، فأهل الرحمة متفاوتون في ذلك، وعلى قدر الرحمة التي يحملونها تكون رحمة كل منهم بالخلق فمنهم من تتسع رحمته لأهل فصيلته، ومنهم من تعم رحمته أهل بلده، ومنهم من تتسع رحمته لجميع المسلمين ومنهم من تشمل رحمته جميع البشر كافرهم ومسلمهم، وأعلامهم درجة وأرقامهم منزلة من تشمل رحمته الكون كله وهو المحسن الداخل في قوله

(1) الطبراني، المعجم الأوسط: 248/6 رقم 6314، والمعجم الكبير: 195/11، رقم 4475، وقال المنذري: رواه البيهقي بإسناد حسن، الترغيب والترهيب: 2/123 رقم 1761، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال: ينزل على هذا المسجد مسجد مكة، وفيه يوسف بن السفر وهو متروك، وفي رواية وأربعون للعاكفين بدل المصلين، مجمع الزوائد: 3/292.

(2) البخاري، الصحيح: 431/1 رقم 1224، ومسلم، الصحيح: 2/635 رقم 923.

(3) البخاري، المصدر نفسه: 5/2235 رقم 5651.

(4) ابن أبي شيبه، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي (ت: 235هـ)، المصنف، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط1، مكتبة الرشيد، الرياض، 1409هـ: السنن الكبرى: 9/41، وشعب الإيمان: 7/476 رقم 11048.

تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽¹⁾، فهؤلاء هم أهل النصيب الأوفى، والحظ الأوفر من رحمت البيت.

والله أعلم.

ثانياً: مكان المغفرة: مرّ بنا أنّ قصد البيت للحج أو العمرة مكفرٌ للذنوب والخطايا، وسنورد هنا مواضع مخصوصة فيه، العمل فيها يكفر السيئات، عن عبيد بن عمير أنّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يُزاحم الركنين زحاماً ما رأيت أحداً من أصحاب النبي ﷺ يزاحم عليه. فقال: ﴿إِنْ أَفْعَلْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ مَسْحَهُمَا كَفَّارَةٌ لِلْخَطَايَا، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَنْ طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أَسْبُوعاً فَأَحْصَاهُ كَانَ كَعَتَقِ رَقَبَةٍ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا يَضَعُ قَدَمًا وَلَا يَرْفَعُ أُخْرَى إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيئَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةً﴾⁽²⁾، وعن معاوية ﷺ قال: (من قام عند ظهر البيت فدعا استجيب له وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)⁽³⁾، وبذلك يظهر لنا أنّ البيت موطن للمغفرة:

أ- عند مسح الحجر الأسود، أو تقبيله.

ب- عند مسح الركن اليماني، أو تقبيله.

ج- عند الطواف يغفر للمسلم بمجرد تحريكه لقدميه.

د- ويغفر له عند الدعاء عند ظهر الكعبة.

ثالثاً: - محل إجابة الدعوات: ومن المنن الكبرى التي يفيضها الله سبحانه وتعالى على ضيوفه الكرام أن يقضي حاجاتهم ويفرج كرباتهم من خلال إجابته لدعواتهم، عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ﴿الْحُجَّاجُ وَالْعُمَرَاءُ وَفَدُ اللَّهِ، إِنَّ دَعْوَهُ أَجَابَهُمْ، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غُفِرَ لَهُمْ﴾⁽⁴⁾، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له، فقال: ﴿يَا أَخِي أَشْرَكْنَا فِي صَالِحِ دَعَائِكَ وَلَا

(1) سورة الأعراف، من الآية: 56.

(2) الترمذي، الجامع الصحيح: 292/3 رقم 959، وقال: هذا حديث حسن.

(3) الأزرق، أخبار مكة: 1/348.

(4) ابن ماجه، السنن: 2/966 رقم 2892، والطبراني، المعجم الأوسط: 6/247 رقم 6311.

تنسنا فقال عمر: ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس ➡⁽¹⁾، وإنما طلب النبي ➡ منه ذلك تعليمًا للأمة أن تلك البقاع مواطن إجابة، وقد وردت نصوص صريحة في إجابة الدعاء في مواضع محددة هي:

أ- الحجر الأسود: عن ابن عمر ➡ قال: (على الركن اليماني ملكان يؤمّنان على دعاء من مرَّ بهما، وإنَّ على الحجر الأسود ما لا يحصى)⁽²⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من استلم هذا الركن ثم دعا استُجيب له، قيل لابن عباس: وإن أسرع؟، قال: وإن كان أسرع من البرق)⁽³⁾.

ب: - الركن اليماني: - عن أبي هريرة أن النبي ➡ قال: ➡ وَكَلَّ بِهِ سَبْعُونَ مَلَكًا، فَمَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، قَالُوا: آمِينَ ➡⁽⁴⁾، وَذِكْرُ تَأْمِينِ الْمَلَائِكَةِ إِشَارَةً إِلَى إجابة الدعاء في ذلك الموضع، ويؤكد ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ➡: ➡ مَا مَرَرْتُ بِالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ إِلَّا وَعِنْدَهُ مَلِكٌ يَنَادِي، يَقُولُ: آمِينَ.. آمِينَ. فَإِذَا مَرَرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ➡⁽⁵⁾.

قلت: وفيه إشارة إلى إنَّ أي دعاء هناك مستجاب؛ لتأمين الملك، ولعل هذه الصيغة ذكرت لأمرين: -أحدهما: إنها من الدعوات الجامعة لخيري الدنيا والآخرة. -والآخر: أنها صيغة مختصرة، وهي تناسب المقام لازدحامه غالباً بالطائفين.

واقعة إجابة

عن الشعبي أنه قال: رأيت عجباً!، كُنَّا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب، وعبد الملك بن مروان، وعبد الله بن عمر فقالوا بعد أن فرغوا من حديثهم، ليقم رجلٌ فليأخذ بالركن اليماني

(1) الإمام أحمد، المسند: 59/2 رقم 5229، وابن حميد، عبد بن حميد بن نصر (ت: 249هـ)، المسند، تحقيق: صبحي البديري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة، 1408هـ - 1988م: ص 241 رقم 740، والبخاري، أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق (ت: 292هـ)، المسند، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، ط 1، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1409هـ: ج 1/ص 231 رقم 119، وقال الهيثمي: ر. واه أحمد وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف: مجمع الزوائد: 279/3.

(2) الأزرقي، المصدر السابق: 341/1.

(3) الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت: 211هـ)، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط 2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ: ج 5/ص 30 رقم 8880.

(4) ابن ماجه، السنن: 985/2 رقم، والطبراني، المعجم الأوسط: 201/8 رقم 8400.

(5) الشافعي، محمد بن إدريس (ت: 304هـ)، المسند، دار الكتب العلمية، بيروت: ج 1/ص 127، وأبو داود، السنن: 179/2 رقم 1892.

وليسأل الله تعالى حاجته، فإنه يعطى من سعة، ثم قالوا لعبد الله: قم أولاً؛ فإنك أول مولود في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم، أسألك بجرمة وجهك، وحرمة عرشك، وحرمة نبيك ➡، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويُسلم عليّ بالخلافة، وجاء، وجلس.

ثم قام أخوه مصعب، فأخذ الركن اليماني فقال: اللهم إنك رب كل شيء، وإليك كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينه بنت الحسين، وجاء، وجلس.

ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم رب السموات السبع، والأرض ذات النبات بعد القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بجرمة وجهك وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك، أن لا تميتني حتى توليني شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء وجلس.

ثم قام عبد الله بن عمر حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم يارحم يارحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة. قال الشعبي: فرأيت كل واحدٍ وقد أعطي ما سأل، وبُشِّر عبد الله بالجنة⁽¹⁾.

ج: الركنان اليمانيان: وكذلك ورد أن النبي ➡ دعا بين الركنين اليمانيين مما يدل على أنه موطن إجابة أيضاً، عن عبد الله بن السائب ◀ قال: سمعت رسول الله ➡ يقول ➡ ما بين الركنين اليمانيين: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار ➡⁽²⁾، وكذلك ورد عن الصحابة ◀ الدعاء في هذا الموضع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي ➡ أنه كان يقول بين الركنين: ➡ اللهم قنّني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليّ كل غائبة لي بخير ➡⁽³⁾.

(1) الفاكهي، محمد بن اسحاق بن العباس (ت: 215هـ)، أخبار مكة، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط2، دار خضر، بيروت، 1414هـ: ج1/ص141-142، واللالكائي، هبة الله بن الحسن الطبري (ت: 418هـ)، كرامات الأولياء، تحقيق: د. أحمد سعد الحمان، ط1، دار طبية، الرياض، 1412هـ: ج/ص141.

(2) أبو داود، السنن: 179/2 رقم 1892، والبيهقي، شعب الإيمان: 3/453 رقم 4045.

(3) البخاري، محمد بن اسماعيل الجعفي (ت: 256هـ)، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط3، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1409هـ-

1989م: ج1/ص237 رقم 681، والبيهقي، شعب الإيمان: 3/454 رقم 4047، والديلمي، أبو شجاع شيروية بن شهردار بن شيرويه الهمذاني (ت: 90هـ)، الفردوس بمأثور

الخطاب، تحقيق: السعيد بن بيسوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م: ج1/ص471 رقم 1917، وصححه الحاكم: المستدرک: 1/626 رقم 1674.

د: الميزاب: - عن عطاء قال: (من قام تحت مشعب الكعبة فدعا استجيب له، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (1).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه ➡ أن النبي ➡ كان إذا حاذى ميزاب الكعبة وهو في الطواف يقول: اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب ➡ (2).

هـ: الملتزم: هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، ويقال له المدعى والمتعوذ، وسمي بالملتزم؛ لأن الناس يلتزمونه ويدعون عنده (3)، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ➡ قال: ➡ ما بين الركن والمقام ملتزم ما يدعو به صاحب عاهة إلا بريء ➡ (4)، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: (ما بين الركن والباب يُدعى الملتزم، لا يلتزم ما بينهما أحد يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله) (5).



- (1) الأزرق، أخبار مكة: 1
- (2) المصدر نفسه: 17/1
- (3) المالكي، محمد بن علو
- (4) الطبراني، المعجم الكبير
- (5) البيهقي، السنن الكبرى

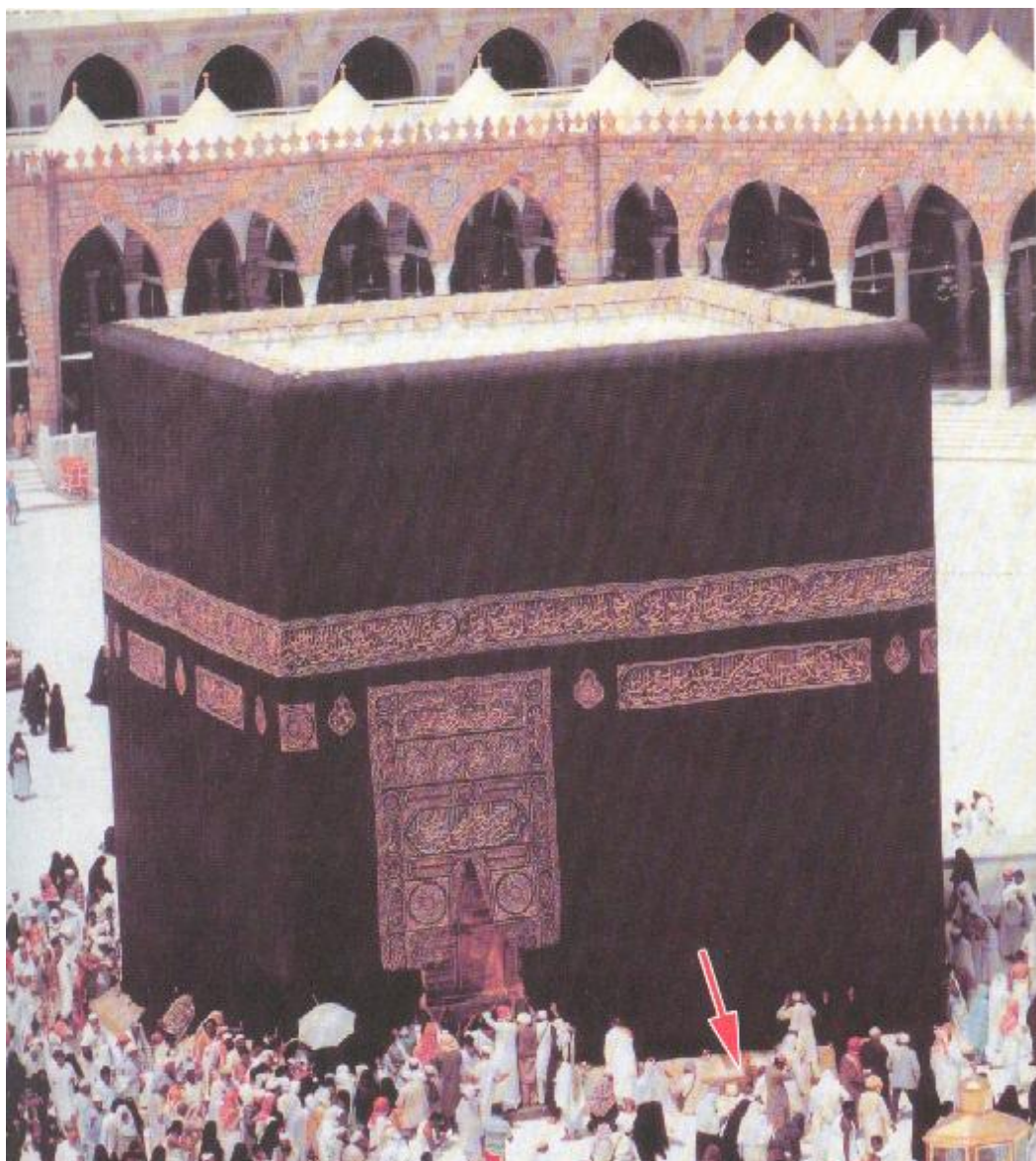
صورة تبين الملتزم وهو من أماكن إجابة الدعاء

و: المعجّن: هو حفرة صغيرة كانت ملاصقة لجدار الكعبة بين باب الكعبة والركن العراقي، وكان سيدنا إبراهيم ﷺ يجمع فيها المواد اللازمة لبناء الكعبة⁽¹⁾.

وقد سُدَّت هذه الحفرة لتعثر الناس بها، قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: (إنَّ ما بين الحجر والباب لا يقوم إنسانٌ فيدعو الله تعالى بشيء إلا رأى في حاجته بعض الذي يجب)⁽²⁾.

(1) خالد محمد حامد، ذكرى من مكة المكرمة، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1426هـ-2005م: ص37.

(2) الفاكهي، أخبار مكة: 1/165 رقم 230.



صورة تبين موضع المعجن وهو من أماكن إجابة الدعاء

ز: ظَهَرُ الكَعْبَةِ: هو الجدار الغربي للكعبة بين الركن الشامي والركن اليماني، وكان الباب الغربي للكعبة الذي سدته قريشٌ عند بنائها للكعبة⁽¹⁾، ورد فيه عن معاوية بن أبي سفيان ◀ قال: (من قام عند ظهر البيت فدعا استجيب له وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه)⁽²⁾.

ح: المقام: وذكر الحسن البصري ◀ (ت: 110هـ) خمسة عشر موضعاً يستجاب فيها الدعاء وعدّها منها: الدعاء خلف المقام⁽³⁾.

قلت: والذي أراه أنّ الدعاء في جميع أرجاء البيت الحرام مستجاب، إذ إنّ مواضعه إما ورد فيها نص صريح على إجابة الدعاء فيه، وإما أن النبي ﷺ دعا فيه وكلاهما دليلٌ قوي، إذن فالدعاء في أنحاء المسجد جميعها مستجاب.

والله أعلم.

دُعَاءُ وإِقْرَار

عن علي بن أبي طالب ◀ أنّه قال: بينا أنا أطوفُ بالبيت إذا رجلٌ متعلقٌ بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ويا من لا تغلظه المسائل، ويا من لا يتبرّمُ بالراح المُلحّين: أذقني برْدَ عفوك، وحلاوة مَعْرِفَتِكَ، قلتُ: يا عبد الله، أعد الكلام، قال: وسمعتُهُ؟ قلتُ: نعم، قال: والذي نفس الخضر بيده—وكان هو الخضر—لا يقولهنَّ عبْدٌ دبر المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كان مثل رمل عالج وعدد المطر، وورق الشجر⁽⁴⁾.

(1) خالد محمد حامد، ذكرى من مكة المكرمة: 49.

(2) سبق تخريجه.

(3) الحسن البصري، الحسن بن يسار أبو سعيد، فضائل مكة، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة الفلاح، الكويت، 1400هـ: ص24.

(4) الفاكهي، أخبار مكة: 2/279، رقم 1524، والخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر (ت: 463هـ)، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت: ج4/ص118، والعسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت: 852هـ)، الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1412هـ-1992م: ج2/ص320، والعجلوني، اسماعيل بن محمد الجراحي (ت: 1162هـ)، كشف الخفاء، تحقيق: أحمد القلاش، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ: ج2/ص537 رقم 3253.

رابعاً: مكان مضاعفة الحسنات: مرّ بنا أنّ الصلاة في مكة بمائة ألف صلاة وأنّ الصيام فيها كذلك، وقد ثبت أن التضعيف لا يختص بهما بل هو لسائر العبادات فيها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ﴿من حجّ من مكة ماشياً حتى يرجع إليها كتب له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، وحسنات الحرم الحسنة بمائة ألف حسنة﴾ (1).

المطلب السابع: مكة المحروسة من الدجال والآفات

خُصت مكة المكرمة بحراسة الله تعالى لها ففي حديث تميم الداري ◀ عندما نزل وأصحابه في احد الجزر فوجدوا الدجال فقال لهم: ﴿...إني أنا المسيح أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرمتان عليّ كلتاها كلما أردت أن أدخل واحدة (أو: واحداً) منهما؛ استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإنّ على كل نقبٍ منها ملائكة يحرسونها﴾ (2)، إذن فمكة المكرمة محروسة من الدجال.

مَنْ هُوَ الدَّجَالُ؟

ولكي نتعرف ونطلع اطلاعاً تاماً على مقدار تلك المنحة التي منحها الله تكريماً لمكة وأهلها، لا بد لنا أن نتعرف على مقدار ذلك الشر الذي صرفه الله عنها، فمن هو الدجال؟ وما أهميته؟

الدجال: رجلٌ من بني آدم خلقه الله تعالى ليكون محنةً للناس في آخر الزمان، ومن صفته أنه أعور العين اليمنى وهي ناتئة لا تحفى، يظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة فيدعي بين الناس الإيمان والصلاح والاستقامة، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الربوبية، فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم والطغام، من الرعاع والعوام، ويخالفه ويردّ عليه من هداه الله من عباد الله الصالحين (3).

وأما مقدار فتنته، فعن هشام بن عامر الأنصاري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما بين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أكبر من فتنة الدجال﴾ (4)، ففتنته أعظم الفتن، ولذلك فقد أخبر جميع

(1) ابن خزيمة، الصحيح: 4/244 رقم 2791، والطبراني، المعجم الأوسط: 3/122 رقم 2675، والمعجم الكبير: 12/105 رقم 12606، والبيهقي، السنن الكبرى: 4/331 رقم 8428. وصححه الحاكم، المستدرک على الصحيحين: 1/631 رقم 1692.

(2) مسلم، الصحيح: 4/2263 رقم 2942 من حديث طويل.

* الأحاديث الواردة في ذكر الدجال كثيرة جداً وهي صحيحة ومتواترة، ومبسوطة في كتب الحديث والفتن، وقد اقتصرنا على نزر يسير منها إذ ليس البحث فيها مقصودنا.

(3) عبد الكريم نصر، أمارات الساعة، ط1، دار الرضوان، سوريا، 2000م: ص 356-357 مع اختصار وتصرف يسير.

(4) الإمام أحمد، المسند: 4/21.

الأنبياء أقوامهم بفتنته، وحذروهم منها، قال رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا قد أندر أمة الأعور الكذاب، ألا إنه أعور العين، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر (1).

وقد بين النبي ﷺ أن الظروف تكون مهيأة لخروجه مع ما يصحبه من خوارق العادات، لتعظم به الفتنة، عن أسماء بنت يزيد الأنصاري قال: كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال فقال: إن بين يديه ثلاث سنين، سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله، ولا تبقى ذات ضرس ولا ذات خف من البهائم إلا هلك. وإن من أشد فتنته أن يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأحييت أخاك ألسنت تعلم أي ربك، فيقول: بلى، فيتمثل له الشيطان نحو أبيه، ونحو أخيه، قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم قالت: فأخذ بحلقتي الباب وقال: مَهْ، مَهْ، أسماء، قالت: قلت: يارسول الله خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال: فإن يخرج وأنا حي فأنأ حجيجه، وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن، قالت أسماء: يارسول الله، والله إنا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع، فكيف بالمؤمنين يومئذ؟، قال: يُجزئهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس (2).

مكة محروسة

وبينما الناس خارج الحرمين الشريفين مشغولين بتلك الفتنة إذا بأهل الحرم المكي آمنين مطمئنين، عن أنس بن مالك رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله ﷺ: ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر منافق (3)، ومعنى أنقابها: مداخلها، وهي: أبوابها وفوهات طرُقها التي يدخل إليها منها (4).

(1) البخاري، الصحيح: 6/2695 رقم 6973، ومسلم، الصحيح: 4/2248 رقم 2932.

(2) الإمام أحمد، المصدر السابق: 6/455 رقم 27620، ونعيم بن حماد، المروزي (ت: 288هـ)، الفتن، تحقيق: سمير أمين الزهري، ط1، مكتبة

التوحيد، القاهرة، 1412هـ: ج2/ص535 رقم 1514.

(3) البخاري، الصحيح: 2/665 رقم 1782.

(4) ابن حجر، فتح الباري: 4/96 رقم 1781، والزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف (ت: 1122هـ)، شرح موطأ مالك، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ: ج4/ص289.

وهذه بشارَةٌ لأهل مكة بأنهم محفوظون من تلك الفتنة العظيمة، فهي من خصائص الحرم المكي، والحرم المدني، على السواء، إذ إنّ الملائكة تقوم على مداخلها بأسياها فتمنع الدجال منهما تشريفاً للبلدين، فينزل بقرهما، فيخرج له من في قلبه مرض (1).
ومع حراسة الله تعالى للحرمين الشريفين - كما أخبر بذلك النبي ﷺ - فإنهما يكونان - فيما يظهر لي - تحت رعاية قيادة حكيمة، وحكومة رشيدة تكون صمام أمانٍ لأمن الناس وأمانهم، ورغيد عيشهم، وهو ما أشار إليه سيدنا عثمان بن عفان ◀ بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَيَنْزِعُ بِالسلطانِ مَا لَا يَنْزِعُ بِالقرآنِ) (2).

حراسةُ أُخْرَى

ومن حراسة الله تعالى لمكة أنه حرسها من الطاعون، عن أبي هريرة ◀ قال، قال رسول الله ﷺ: ◀ المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقبٍ منها ملك لا يدخلها الطاعون ولا الدجال ◀ (3).

وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً، قال، قال رسول الله ﷺ: ◀ المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقبٍ منها ملك، لا يدخلهما الدجال ولا الطاعون ◀ (4)، قيل: الطاعون الموت الذريع الناشيء عن وَخْرِ الجن (5).

فالطاعون لا يدخل مكة مطلقاً، وقيل: إن المعنى: لا يدخلها من الطاعون مثل الذي وقع في غيرها كطاعون عمواس والجارف (6).

(1) ينظر: المناوي، فيض القدير: 539/3.

(2) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1356هـ - 1937م: ج 1/ص 157، وينظر: الصلابي، د. علي محمد محمد، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ◀، ط 1، مكتبة التابعين، القاهرة، 1424هـ - 2003م: ص 97.

(3) الإمام أحمد، 483/2 رقم 10270، قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. مجمع الزوائد: 309/3.

(4) البخاري، التاريخ الكبير: 6/180 رقم 2099، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عمر بن شبة في تاريخ مكة ورجاله رجال الصحيح. فتح الباري: 10/191.

(5) المناوي، فيض القدير: 321/4.

(6) ابن حجر، المصدر السابق: 10/190.

قلت: وخلاصة ذلك أنّ مكة محروسة من الآفات كلها قال تعالى ﴿وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمناً...﴾⁽¹⁾ فتتضمن الآية: أن داخل مكة آمناً من الآفات، بل إنّ من دخلها وفيه آية من الآفات شُفي، فإما أن تصيبه إحدى رحمت البيت المائة والعشرين فيشفى بها، أو يشرب من زمزم على نية الشفاء فيشفى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿ماء زمزم لما شُرب له، إن شربته لتشتفي به، شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك، قطعه الله، هي هزيمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل﴾⁽²⁾، وقد جرّب ذلك كثير من العلماء والصالحين وعوام المسلمين، وسنأتي على بيان طرف من ذلك—إن شاء الله—عند الكلام على آبار مكة ولاسيما زمزم، فإلى هناك.

لماذا جَمَعَ النبي ﷺ بين ذكر الطاعون والدجال؟

ظهر لي بعض المعاني في الإجابة عن هذا السؤال:

- 1- كما إنّ الطاعون سبب لهلاك الكثير من الناس فكذلك الدجال سبب لهلاك الكثير؛ ولذلك جمع بينهما.
- 2- وربما يشير النبي ﷺ إلى أنّ ظهور الدجال يصحبه فشو وباء الطاعون، والأمراض الفتاكة الأخرى.
- 3- وقد يُراد بالطاعون، الطاعون المعنوي وهو يصيب نفوس الناس وعقولهم وأفكارهم، إذ تكون نفوسهم غير مزكّاة، وقلوبهم ليست بطاهرة، وعقولهم طائشة، وأفكارهم منحرفة، بسبب كثرة الجهل وقلة العلم، وانعدام التقوى، وهذا الحال هو ما ينشأ عنه قسوة القلوب وظلمة النفوس، وينتج عنهما التطرف والعنف وكثرة القتل، وهذا ما نشاهده في واقع الناس اليوم.

المطلب الثامن: الأدب في مكة المكرمة

(1) سورة آل عمران، من الآية: 97.

(2) الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن (ت: 358هـ)، السنن، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، 1386هـ-1966م؛ ج 2/ص 289 رقم 238، والمنذري، الترغيب والترهيب: 2/136 رقم 1816، والديلمي، الفردوس: 4/152 رقم 6470.

وردت نصوص كثيرة تحت على احترام أهل مكة ولزوم الأدب معهم، فعن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ قال: **﴿لقد رأيتُ أُسيداً في الجنة، وأتَّى يدخلُ أُسيدُ الجنة؟!، فعرض له عتاب بن أُسيد فقال: هذا الذي رأيت، ادعوه لي، فدعاه، فاستعمله يومئذٍ على مكة فقال لعتاب: أتدري على من استعملك؟، استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيراً﴾** (1)، فإذا كان النبي ﷺ قد أوصى أمير مكة أن يعامل أهلها بالحسن، وأن لا يجدوا منه إلا الخير والرحمة، فإن هذه الوصية تعم جميع المسلمين من باب أولى، وتتضمن النصيحة لهم بلزوم الاحترام والتعظيم لأهل مكة.

ولم ترد الأحاديث في الحث على الأدب مع أهل مكة من البشر فحسب، بل حثت على لزوم الأدب مع حيواناتها ونباتاتها وحتى شوكها، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **﴿إنَّ الله حرَّم مكة فلم تحلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلَّ لأحدٍ بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، لا يختلي خلها ولا يعصُدُ شجرها، ولا يُنْفَرُ صيدها، ولا تلتقطُ لقطتها إلاَّ لمُعَرِّفٍ﴾**، وقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا، فقال: **﴿إلا الإذخر﴾** (2).

وعن خالد عن عكرمة قال: هل تدري ما لا يُنْفَرُ صيدها؟، هو أن يُنَحِّيَهُ من الظل ينزل مكانه (3). وفي الحديث عدة أمور يحرم فعلها في مكة ومن أتى شيئاً منها أساء الأدب ولزمته العقوبة الدنيوية التي ذكرها الفقهاء*، أو العقوبة الأخروية إذا لم يؤدَّ جزاء ما فعل وهذه الأمور هي: -

- 1- يحرم حمل السلاح بمكة للقتال.
- 2- يحرم قطع حشيشها.
- 3- يحرم قطع شجرها، واستثنى الإذخر للعلة المذكورة.
- 4- يحرم تنحية الصيد من مكانه أو إخافته، فإذاؤه وقتله من باب أولى.

(1) الأزرقى، أخبار مكة: 151/2، والفاكهي، أخبار مكة: 65/3 رقم 1803.

(2) البخاري، الصحيح: 651/2 رقم 1736، ومسلم، الصحيح: 986/2 رقم 1353.

(3) البخاري، الصحيح: 651/2 رقم 1736.

* لم نتطرق الى تفاصيلها لأنها مسائل فقهية بحتة.

5- يحرم أخذ لقطتها إلا لتعريفها، ولا يجوز تملكها، قلتُ: وقد قامت السلطات مشكورةً في الحرمين الشريفين بإعداد أماكن خاصة لاستقبال اللقطة "تشمل المفقودات"، من أجل رفع الحرج عن قُصّاد البيت الحرام في مسألة الحفاظ على اللقطة والتعريف بها.

ويظهر لي أنّ في الحديث الشريف إشارة إلى وجوب الأدب مع كل شيءٍ في مكة المكرمة؛ لأنه ذكر الحشيش وهو ليس من الأمور الثمينة، لذا فإنه يجب على المسلمين جميعاً الأدب مع الأشياء في تلك البقاع المقدسة ولاسيّما الأشياء ذوات الفائدة الكبيرة التي تؤدي خدمة للقاصدين كالمصاعد والحافلات والأبواب، فلا يجوز العبث بها، ومن أهم من ينبغي الأدب معهم واحترامهم هم من يقومون على خدمة البيت الحرام من حرسٍ وموظفين وعُلماء فإنهم يتحملون عبئاً كبيراً ويؤدّون خدمة عظيمة، وأخيراً احترام الملوك والأمراء الذين يبذلون من وقتهم وراحاتهم الكثير، وأول خطوة في احترامهم والأدب معهم هي عدم الخروج عليهم أو تكفيرهم لما لذلك من نتائج عكسية، وسنأتي على ذلك بالتفصيل في محله - إن شاء الله -.

المطلب التاسع: الموت في مكة

لما كانت مكة المكرمة مواطن رحمة فإن لمن يموت بها منزلة كبيرة وخصوصية عظيمة، عن سلمان ◀ عن النبي ﷺ أنه قال: ➡ من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وجاء يوم القيامة من الآمنين ➡⁽¹⁾، وعن عمر ◀ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ➡ من زار قبري أو قال من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً، أو كلاهما، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمنين يوم القيامة ➡⁽²⁾، وعن حاطب ◀ قال، قال رسول الله ﷺ: ➡ من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة ➡⁽³⁾.

(1) الطبراني، المعجم الكبير: 30/496 رقم 4180، وقال عن أحد رواته: عبد الغفور هذا ضعيف، وروي بإسنادٍ آخر أحسن من هذا، وذكره الهيثمي في مجمع

الزوائد: 2/319 وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الغفور بن سعيد وهو متروك.

(2) الطيالسي، سليمان بن داود الفارسي البصري (ت: 204هـ)، المسند، دار المعرفة، بيروت، بيروت: ص 12 رقم 65، والبيهقي، السنن الكبرى، 5/245 رقم 10053، وقال: هذا إسناد مجهول.

(3) الدارقطني، السنن: 2/278 رقم 193.

مَنْحَتَانِ عَظِيمَتَانِ

ذكرت الأحاديث الشريفة منحتين عظيمتين لمن يموت في حرم مكة:

—أحدهما: أنه يبعث آمناً يوم القيامة.

—والأخرى: أنه يستوجب شفاعته النبي ﷺ.

فما قيمة هاتين المنحتين؟

أما منحة الأمان عند البعث فلكي تتضح أماننا عظمتها لا بدّ أن نعرف ما يصيب الناس عموماً عند البعث، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَاخِرِينَ﴾⁽¹⁾، ثم وصف سبحانه قوة تأثير ذلك الفزع بأنه يجعل الأم المرضعة الحنون تترك وليدها، فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾⁽²⁾، فبينما الناس فزعين خائفين مضطربين حيارى، إذا بمن مات في الحرم المكّي يأتي آمناً من كل ذلك، مطمئناً ببركة الحرم، وليس الأمان في تلك الساعة إلا علامة حسن المال؛ لأنه إذا نجا من الأهوال فقد حصل حُسْنَ المال.

ثم لعل سائلاً يسأل: ما الميزة والمنحة في قوله ﷺ "استوجب شفاعتي"، وقد ثبت بما لا يقبل الشك بل أصبح من أصول الاعتقاد أنّ النبي ﷺ يشفع للمذنبين؟ قلت: المقصود أنه يحظى بشفاعة خاصة.

والله أعلم.

الموتُ بِمَكَّةَ أَمْرٌ فَاضِلٌ أَمْ مَفْضُولٌ؟

مرّ بنا أنّ للموت بمكة فضيلة كبيرة، ولكن: هل إنّ مكة المكرمة هي أفضل مكان يموت فيه المسلم؟

(1) سورة النمل، آية: 87.

(2) سورة الحج، الآيتان: 1-2.

* ينظر في ذلك -مثلاً- سعد الدين التفتازاني (ت: 793هـ)، شرح المقاصد، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ-2001م: ج3/ص398 وما بعدها، وينظر: الشعراني، عبد الوهاب، البواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ط2، دار المعرفة، بيروت: ج2/ص153-155.

الجواب: إنّ أفضل موضع يموت فيه المسلم هو الموضع الذي طالما دعا رسول الله ﷺ أن يقبضه إليه فيه، وهو المدينة المنورة؛ لأنّ رسول الله ﷺ كان إذا دخل مكة قال: ﴿اللهم لا تجعل مناينا بها حتى تُخرجنا منها﴾⁽¹⁾، فإذا أكمل نُسكُهُ عاد مسرعاً إلى المدينة، فإذا اقترب من حدودها حرّك دابته من حُبِّها، وقال: ﴿اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً﴾⁽²⁾.

وهذا لا ينفي فضل الموت بمكة، فالموت بمكة له فضيلة لكن الموت بالمدينة أفضل، فالموت بالمدينة فاضل، والموت بمكة مفضل.

المطلب العاشر: خراب الكعبة

عند اقتراب الساعة تتغير الحياة تغيراً جذرياً تمهيداً لقيامها، ومن تلك التغيرات اختفاء الأشياء المقدسة المباركة ورفع الرحمة، عن سعيد بن سمعان ◀، قال سمعت أبا هريرة ◀ يحدث أبا قتادة ◀ وهو يطوف البيت، فقال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يبايع لرجل بين الركن والمقام، وأوّل من يستحل هذا البيت أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجيء الحبشة، فيخربونه خراباً لا يُعمّر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه﴾⁽³⁾، وعن أبي هريرة ◀ عن النبي ﷺ قال: ﴿يُخَرَّبُ الكعبة ذو السّويقتين من الحبشة﴾⁽⁴⁾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ﴿كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً﴾⁽⁵⁾.

قلت: وفي هذه الأحاديث عدة أمور: -

الأول: إنّ هذه الأحاديث تصرح بأن الكعبة المشرفة تُهدم في آخر الزمان، والظاهر أنّه لا يكون بعد ذلك حج، لما روي عن الحارث بن سويد قال: سمعت علياً ◀ يقول: ﴿حجوا قبل أن لا تحجوا، فكأني

(1) الإمام أحمد، المسند: 25/2، رقم 4778، والطبراني، المعجم الكبير: 356/2، رقم 13329، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبخاري ورجال الصحيح خلا محمد بن ربيعة وهو ثقة. مجمع الزوائد: 253/5.

(2) سبق تخريجه.

(3) الإمام أحمد، المسند: 291/2، رقم 7897، والطيايسي، المسند: 12/3، رقم 2373، وابن حبان، الصحيح: 239/15.

(4) البخاري، الصحيح: 577/2، رقم 1514، ومسلم، الصحيح: 2232/4، رقم 2909.

(5) البخاري، المصدر نفسه: 579/2، رقم 1518.

أنظر إلى حبشيٍّ أصمَّع أفدع بيده معول يهدمها حجراً حجراً، فقلت له: شيءٌ تقوله برأيك أو سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ولكني سمعته من نبيكم ﷺ (1).

-الثاني: من يقوم بهدمها هو رجل من أهل الحبشة ورد في صفته أنه أفحج: أي: متباعد ما بين الساقين، وأصلع، أي: ذاهب شعر مقدم رأسه، أو هو صغير الرأس، والأصمَّع: أي: صغير الأذنين.

وقوله ذو السويقتين: تشية سويقة وهي تصغير ساق، أي: له ساقان دقيقان (2)، والأفدع: هو من في يديه اعوجاج (3).

الثالث: إنَّ زمن هذا التخریب للكعبة لم يأت بعد، عن مجاهد قال: لما هدم ابن الزبير رضي الله عنهما الكعبة جئت انظر إليه هل أرى الصفة التي قالها عبد الله بن عمرو -أي: صفة الحبشي التي مر ذكرها- فلم أرها (4)، وقيل: إنَّ ظهور ذي السويقتين في وقت عيسى ﷺ، وبعد يأجوج ومأجوج (5).

-الرابع: الظاهر أنَّ ذلك الحبشي لن يهدم الكعبة كي يعمرها، ويدلنا على أنَّ الحبشي لا يريد إعمارها ما ورد أنه يسلب حليتها ويأخذ كنوزها، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: ﷻ اتركوا الحبشة ما تركوكم، فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلاَّ ذو السويقتين من الحبشة ﷻ (6)، وفي رواية: ﷻ ويسلبها حليتها ويجردّها من كسوتها... ﷻ (7).

-الخامس: قيل: هذا الحديث يخالف قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ (8)، ولأنَّ الله حبس عن مكة الفيل ولم يمكن أصحابه من تخریب الكعبة ولم تكن إذ ذاك قبلة للمسلمين؟، وأجيب بأنَّ ذلك

(1) الفاكهي، أخبار مكة: 1/333 رقم 755، والبيهقي، السنن الكبرى: 4/340 رقم 8480.

(2) ابن حجر، فتح الباري: 3/461.

(3) البرزنجي، محمد بن رسول (ت: 1103هـ)، الإضاءة لأشراط الساعة، تعليق: محمد زكريا الكاندهلوي، تحقيق: حسين محمد علي شكري، ط3، دار المنهاج، جدة 1425هـ - 2005م: ص 299.

(4) الفاكهي، أخبار مكة: 1/358 رقم 744.

(5) محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، عون المعبود، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ: ج 11/ص 285، والمناوي، فيض القدير: 1/118.

(6) الحاكم، المستدرک على الصحيحين: 4/500 رقم 8396، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(7) الامام أحمد، المسند: 2/220 رقم 7053، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ابن اسحاق وهو ثقة ولكنه مدلس. مجمع الزوائد: 3/298.

(8) سورة العنكبوت، من الآية: 67.

محمولٌ على أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة حيث لا يبقى في الأرض أحدٌ يقول: الله، الله، ولهذا ورد في رواية "ولا يعمر بعده أبداً" (1).

وقال المناوي: (وإنما سلّط عليها، ولم يحبس عنها كالفيل، لأنّ هذا إنما هو قرب الساعة، ثم فناء أهل الحق، فسلط على تخريبها لئلا تبقى مهانةٌ معطلةٌ بعدما كانت مهابةً مبجلةً) (2).
قلت: الذي أراه أنّ الله سبحانه وتعالى حبس عن مكة الفيل؛ لأمرين: -

أولاً: لم تكن لأهل مكة آنذاك قوة يمكن أن تصدّ جيش إبرهة.
ثانياً: لم يكن هناك مسلمون مكلفون تكليفاً شرعياً بالدفاع عن البيت الحرام، أما بعد أن انتشر الإسلام وملاً الأقطار، فإن المسلمين هم المكلفون بالحفاظ على مقدساتهم ومن تهاون بالدفاع عنها فقد أثم، وإذا تعرض الحرم المكي أو النبوي لاعتداء ولم يصده أحدٌ، فإن جميع المسلمين يأثمون إثماً عظيماً؛ لأنهم تهاونوا بواجبهم الشرعي، وأرى أنه من الواجب الشرعي على كل مسلم يفد إلى الحرمين الشريفين سواء كان حاجاً أم معتمراً مقيماً أن يبقى متيقظاً نبهاً لكل ملاحظة يلاحظها في إطار خدمة الحرمين وحمايتهما، وعلى سبيل المثال هذه ملاحظتي حول الحبشي.

تَحذِيرٌ مِنَ الْحَبَشِيِّ

أقول: إن ذلك الحبشي سيتمكن من فعلته بإحدى الطريقتين: - فأما أن يكون ممن ينقضون الكعبة ليعيدوا بناءها، وهذا الأمر ربما حدث دون أن يعلم المسلمون، خلال عمليات إعمار البيت الحرام. أو يكون ممن ينقضونها تخريباً، وذلك لا يحدث إلا إذا كانت الأجواء مهينة لذلك، كأن تحدث فتنة عظيمة في بلاد الحرمين الشريفين، فينعدم الأمان ويسود الانفلات وتعم الفوضى، فيستغل بعض الأحباش ممن هم داخل البلاد تلك الفوضى ليعبث في الحرم المكي ويسلب حليته، وينقضه حجراً حجراً.

ومن خلال مشاهداتي وزياراتي لمكة المكرمة رأيت أناساً في محيط مكة ممن هم على صفة ذلك الحبشي، أي إنّ صفة قلوبهم كصفة قلبه من حيث الطمع، وقد توجست منهم خيفة على الحرم

(1) ابن حجر، المصدر السابق: 3/461، والنووي، شرح صحيح مسلم: 18/35-36، والحديث سبق تخريجه.

(2) المناوي، فيض القدير: 6/459.

الشريف إذ إن هؤلاء إذا وجدوا الفرصة سانحة فلن تمنعهم أنفسهم عن نهب الحرم أو الإحداث فيه والإساءة إليه؛ لذا فإنه يجب على القائمين على حماية الحرمين الشريفين أن يحتاطوا لذلك بأكمل الاحتياطات، ولا يجعلوا لمثل تلك العناصر الوافدة الشاذة تواجداً في تلك البقاع، وإن حصل ودخلوها فيجب أن يبقوا تحت أنظار العناصر الأمنية حتى يخرجوا منها والمهم عندنا هو سلامة الحرمين الشريفين من عبث كل عابث وجزى الله خير الجزاء جميع القائمين على خدمة ورعاية الحرمين الشريفين.

المطلب الحادي عشر: رؤيا الكعبة

الرؤيا عموماً هي من المبشرات، عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: ﴿سمعت رسول الله ﷺ يقول: لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات، قال: الرؤيا الصالحة﴾⁽¹⁾، قال ابن حجر: (قال ابن التين: معنى الحديث إن الوحي ينقطع بعد موتي، ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون إلا الرؤيا ويردّ عليه الإلهام، فإن فيه إخباراً بما سيكون وهو للأنبياء بالنسبة للوحي كالرؤيا، ويقع لغير الأنبياء)⁽²⁾، ثم بين ابن حجر الحكمة من حصر المبشرات المستقبلية بالرؤيا في هذا الحديث فقال: (إن الحصر في المنام؛ لكونه يشمل آحاد المؤمنين، بخلاف الإلهام فإنه مختصّ ببعض ومع كونه مختصاً فإنه نادر، فإنما ذكر المنام لشموله وكثرة وقوعه)⁽³⁾.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم حديثاً أصدقكم رؤيا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة، فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه﴾⁽⁴⁾، قال ابن حجر في بيان معنى الحديث: (وقد يقع لكثير من الصلحاء ثم الغيبة بالنوم، أو غيره اطلاقاً على كثير من الأسرار وذلك مُسْتَمَدٌّ من المقام النبوي)⁽⁵⁾.

(1) البخاري، الصحيح: 2564/6، وابن حبان، الصحيح: 412/13، رقم 6047، ورقم 6048 مع اختلاف يسير.

(2) فتح الباري: 376/12.

(3) المصدر نفسه: 376/12.

(4) البخاري، المصدر السابق: 2562/6، 6586، 6587، مختصراً، وبهذا اللفظ عند مسلم، الصحيح: 1773/4، رقم 2262.

(5) ابن حجر، المصدر السابق: 358/12.

خُصُوصِيَّةٌ لِلْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ

لم تقتصر خصوصيات الكعبة المشرفة على رؤيتها في الحقيقة بل امتدت إلى رؤيتها في المنام، حتى إنّ رؤيتها حقاً، عن أبي سعيد الخدري ◀ قال، قال رسول الله ﷺ: ➡ من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإنّ الشيطان لا يتمثل بي، ولا بالكعبة ➡ (1).

والذي أراه في معنى الحديث أنّ من رأى الكعبة في المنام فإنّ الله سيكرمه برؤيتها في الحقيقة، وذلك أنّ النبي ﷺ خصّ شيئين من المرائي بأتهما حق أحدهما رؤية حضرته ➡ والآخر رؤية الكعبة، وقد بين ➡ أنّ من رآه في المنام فإنه سيراه يقظةً حين قال: ➡ من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي ➡ (2)، فما المانع بأن يكون المعنى رؤية الكعبة في المنام هو إن أمر الرائي سيؤول إلى رؤيتها في الحقيقة؟ ثمّ ما معنى إشارته ➡ إلى أنّ رؤيتها حق غير أن صاحب تلك الرؤيا سيراها في الحقيقة هذا ما أراه.

والله أعلم.

مَكَّةٌ عِنْدَ أَهْلِ التَّعْبِيرِ

مما يلاحظ أنّ أهل تعبير الرؤيا عندما يتكلمون عن معنى رؤية البقاع المقدسة فإنهم يؤوّلونها على عدة وجوه بحسب الرائي فيقولون مثلاً من رأى أنه في مكة فإنه يزور الكعبة، ومن توجه إليها لأجل التجارة فإنه يكون حريصاً على حب الدنيا (3)، ودخول مكة للعاصي توبة، وللكافر إسلام، وللأعزب زوجة (4)، كما نجد هؤلاء المعبرين يقفون أحياناً عند ظاهر الألفاظ الواردة في الموضع المرئي فيقولون: ومن دخل مقام إبراهيم ▶ فإن كان خائفاً أمّن (5)؛ لقوله تعالى ▶ ومن دخله كان آمناً ◀ (6)، ومن

(1) الطبراني، المعجم الصغير: 1/175، رقم 277، والأوسط 3/238 رقم 3026، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه محمد بن أبي السري وثقه ابن معين وغيره، وفيه لين، وبقيّة رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد: 7/181.

(2) البخاري، الصحيح: 6/2567 رقم 6592، ومسلم، الصحيح: 4/1775 رقم 2266.

(3) الظاهري، خليل بن شاهين، الإشارات في علم العبارات (بهامش تعطير الأنام)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1384هـ: ص 47.

(4) النابلسي، عبد الغني، تعطير الأنام في تعبير المنام، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1384هـ: ج 2/ص 240.

(5) المصدر نفسه: 2/229.

(6) سورة آل عمران، من الآية: 97.

رأى أنه تحت ميزاب الرحمة تداركه الله برحمته⁽¹⁾، وقالوا: رؤية الكعبة أمنٌ وإيمان وسلام⁽²⁾، لقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾⁽³⁾.

والذي أراه يتلخص فيما يأتي:-

1- إنَّ الرؤيا الصالحة هي عبارة عن اطلاع الروح على شيء من الغيب، قال حضرة شيخنا مصطفى كمال الدين⁽⁴⁾ رحمه الله: (وأصلها اطلاع الروح على ما في اللوح المحفوظ بطريق من طرق الاطلاع)⁽⁵⁾.

2- بناءً على ما ذكر فإنني أرى أنَّ الإنسان إذا رأى أيًّا من البقاع المقدسة سواءً كانت مكة المكرمة عموماً، أم الحَجَر الأسود أم المقام أم غيرها، فإن تأويل ذلك أنه سيحظى بزيارة تلك البقاع المقدسة ورؤيتها على الحقيقة إما بحجٍّ، أو بعمرَةٍ. والله أعلم.

(1) النابلسي، تعطير الأنام: 228/2.

(2) الظاهري، الإشارات في علم العبارات: 48.

(3) سورة العنكبوت، من الآية: 67.

(4) هو حضرة الشيخ مصطفى بن أبي بكر بن محمد بن عبد الله الهرشي من بيت علم كردي عريق، ولد سنة 1305 هـ وقضى حياته في التقوى والعلم وتخرج على يده ألف عالم من مدرسته العلمية في محافظة أربيل العراق، توفي رحمه الله مساء الجمعة 1406/6/5 هـ - الموافق 1986/2/14 م وهو شيخ الباحث في العمل الروحي الإسلامي، رحمه الله رحمة الأبرار والصالحين الصادقين وألحقنا بهم غير خزايا ولا نادمين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين. ينظر: النجم الزاهر: 114-119.

(5) كشمولة، نكتل يونس، النجم الزاهر، ط2، 1408 هـ - 1988 م: ص 95.